التواطؤ أم التباطؤ في تشكيل الهُويّة الفنّيّة من خلال الإبداع في الفنّ التشكيليّ الفلسطينيّ في الداخل!

حسني الخطيب شحادة *

بدايات

في الحيّز الضيّق ما بين التعبير أو ترجمة وتحليل أعمال فنيّة تشكيليّة بالكلمات والنقد على المستوى الفكريّ، أجدني في تراجع مستمرّ الى نقطة البداية... هي الصفر - تلك الفجوة الضيّقة وغير المأهولة تمامًا بمعرفة الوعي. هل ثمّة أصلاً نقطة بداية للفنّ التشكيليّ الفلسطينيّ؟ هناك مَن يعود إلى نهايات القرن التاسع عشر، حيث كانت موجة من التأثرات الغربيّة والتي تُرْجِمَت إلى مجموعة من الأعمال الفنّيّة في إطار فنّ التصوير الفوتوغرافيّ. وهناك من يؤرّخ البدايات استنادًا إلى الرسم التشكيليّ الذي حمل سِمات الواقعيّة-الرومانسيّة أو التاريخيّة. وفي كلتا الحالتين، نجد الفنّ التشكيليّ الفلسطينيّ في بداياته لا ينبع من إيديولوجيا وفكر عميق، وكذلك ولم يتبلور كفنّ يبحث عن جذور وهُويّة، وهذا الطابع الأوّليّ لا يزال يجد له مكانًا في بعض الأعمال الإبداعيّة الفلسطينيّة المعاصرة والتي ترتئي أسلوب السرد الواقعيّ وتصوير الأشخاص بهالة من التقديس. ولكن التغيير (أو لنقل: النقلة النوعيّة لبدايات الفنّ الفلسطينيّ) قد حصل فعلاً مع تزامن أحداث النكبة وحرب العام 1948 وما نتج عنها من انشطار الأرض والشعب، والتشتت والبقاء، الحياة والموت، الغضب والاستكانة، اللجوء والاختفاء، الخوف والهزيمة، الشوق والنسيان، المفتاح والبيت، الجدّ والحفيد... كلّ هذه الصيغ والمفردات تحوّلت فجأة إلى عناصر تشكيليّة تَضَمّنها الفنّ الفلسطينيّ، وخاصّة بعد تقويض كلّ معالم الحضارة الفلسطينيّة من جغرافيّتها الطبيعيّة وحلول حضارة غريبة احتلّت مكانها!

ومن هنا بدأ –في المقابل- احتواء كلّ ما هو فلسطينيّ داخل إطار الفنّ التشكيليّ الصهيونيّ الذي لم يمثّل فقط الأرض والبيت والتاريخ المسطّر في الكتب السماويّة وغير السماويّة، بل بدأ فعلاً باحتواء التاريخ الإنسانيّ للمكان، بحيث شمل الإنسان الفلسطينيّ! إنّ كلّ متتبّع للفكر الفنّيّ الذي تأسّس في فلسطين من قِبَل اليهود سيجد حتمًا تلك الإيديولوجيا الواضحة للتغلغل واحتواء ما يكمن في عمق التاريخ والبعد الفلسطينيّ وتحويره لمقولة تاريخيّة يهوديّة تتعامل مع المكان كقالب قد صُقِلَ من طين وقد تجمّد لمدّة ألفي عام لينتظر الإله اليهوديّ الذي جاء ليبثّ فيه الروح التي لم تكن فيه منذ الخلق! وهكذا تحوّل التاريخ والإنسان الفلسطينيّ إلى مجرّد فكرة قد مرّت هنا ولم تُبْقِ لها من أثر! هذا الإقحام للبعد اليهوديّ داخل البعد الفلسطينيّ يأخذ مكانته الواضحة في كلّ ما تَكَوّن في الحركة الفنّيّة التشكيليّة الصهيونيّة منذ بداياتها، حيث تَحَوّل كلّ شيء إلى جزء من الإرث اليهوديّ المصطنع، والذي حوّر الطبيعة الفلسطينيّة بكلّ ما تحويه، البيوت والوجوه، اللباس والعادات، الضوء والبحر، الراعي والزيتون، التلال والصبّار، كلّ ذلك قد تحوّل، بدراسة واعية ومنسّقة فكريًّا، إلى جزء من الإرث الصهيونيّ. وهذا الإرث هو الذي يتلقّاه الدارس للفنون في الأكاديميّات الإسرائيليّة. وبطبيعة الحال، إنّ الفنّان الفلسطينيّ العربيّ يتحتّم عليه أن يتعامل مع هذا الفكر، وفي معظم الأحيان تتكوّن لديه صورة مشوّهة أو غير متكاملة للحضارة الفلسطينيّة المغيّبة من نطاق الدراسة. وبهذا يصبح الفنّان الفلسطينيّ في إسرائيل عالقًا في مأزق (ورطة) الفكر الصهيونيّ. فحتّى إذا فرضنا أنّ الفنان واعٍ لكلّ ذلك، يبقى في المكان الذي يبدع فيه كأنّه في واجهة للدفاع عن ذاته أو عن تاريخه، فيبقى عمله كردّة فعل للمقولة والفكر الصهيونيَّيْن... وهذا في حدّ ذاته مأزق أعظم من الأول، بالكاد يستطيع الخروج منه، حيث يبدأ الفنّان الفلسطينيّ بمرحلة البحث عن الذات باعتماده على مهارات وتقنيات وأساليب قد اقتناها وطوّرها من خلال دراسته ومن ثَمّ عمله. بالرغم من شعور الفنّان واقتناعه بطرح العمل الإبداعيّ باستقلاليّة وتَحَدٍّ وبذاتيّة مغرقة بأحاسيس تجيش في صدره هو، ولكن على الغالب النتيجة تكون شخصيّة مشوّهة وغير متكاملة لشخصيّته القوميّة والحضاريّة والتاريخيّة!

الجندريّة والفنّ التشكيليّ الفلسطينيّ

الهُويّة الجندريّة في الأعمال الفنّيّة التشكيليّة تؤدّي دورًا رئيسًا في العديد من الأعمال، وخاصّة لدى فنّانات يبحثن من خلال أعمالهنّ عن مقولة أنثويّة –نسويّة -جندرية تحمل طابع التمرّد والتعبير عن

الذات على نحوٍ يضع الصورة داخل إطار هو -على الغالب- متأثر بما يجري على صعيد الفنّ التشكيليّ في العالم الغربيّ. فقلّما نجد عملاً يحمل سِمات الحميميّة أو حتّى الارتباط بمحيط الفنّانة كحيّز يتيح لها العمل بحرّيّة وبتعبير ذاتيّ يتناغم مع واقع عاديّ. هذا التعبير الفنّيّ يساير حركة فنّيّة عالميّة، وبالأخصّ في معاهد الفنون في الولايات المتّحدة الأمريكيّة والتي تتيح المجال أمام طلبة الفنّ من البلاد المعروفة بـ "العالم الثالث". لا شكّ أنّ الانضمام إلى تلك المعاهد يحتّم على كلّ طالب للفنّ أن "يبعبش" ويحفر عن وجع ذاتيّ ويبحث عن هُويّته الثقافيّة الضائعة والمهمّشة، بحيث تلائم – بالضرورة- المقولة السياسيّة السائدة التي مُفادُها أنّ أمريكا هي المكان الأفضل والأسمى الذي يتيح للفنّان التعبير عن ذاته بحرّيّة وديموقراطيّة. هذا التيّار التعليميّ هو كذلك التيّار المهيمن في إسرائيل ككيان "ديموقراطيّ" يسمح للفنّان الفلسطينيّ أن يبحث عن ذاته وعن هُويّته وعن شخصيّته! وعلى الأغلب، يجري للفنان الفلسطينيّ ما يجري في أمريكا، حيث بالضرورة التعبير التشكيليّ يأتي من نظرة سلبيّة لخلفيّة الطالب؛ ولذا عليه أن يجابه الماضي بشجاعة وأن يعرض الصورة السلبيّة بكاملها، فإن لم يفعل فهو "غير صادق مع نفسه"! هذه الهُويّة المهشّمة نجد دلالتها وتعبيراتها على الصعيد الجندريّ في العديد من الأعمال المعاصرة في الفنون التشكيليّة الفلسطينيّة في الداخل.

وعودة إلى الطبيعة والإنسان

تتشكّل الطبيعة في لوحات الفنّ الفلسطينيّ كجماليّات تحمِّل المُشاهد مشاعر متناقضة لِما في الواقع... تلك القرية الوادعة التي تنتظر القمر ليطلّ عليها برومانسيّة عذبة تتأوّه لانعكاسات الضوء الكونيّ على شجيرات الزيتون المتجذّرة في عمق التاريخ! هل فعلاً قُرانا الفلسطينيّة لا تزال اليوم على هذه الصورة، أم إنّه خيال يستكتبه الفنّان من تجارب شتّى، معظمها من ماضٍ قد انقرض وولّى، وبالذات ذلك الذي يحمل انعكاسًا مباشرًا للتيار الفنيّ البتسالئيليّ – الصهيونيّ – الكنعانيّ الذي استوطن المكان واحتوى الرومانسيّة كجزء من المشروع الفنّيّ الاستيطانيّ في فلسطين!

ولكن... لعلّ الفنّان الفلسطينيّ يقصد بأعماله بناء مشروع جديد. فإنْ كان فعلاً يستقي من بعض ينابيع التيّار الصهيونيّ، فهذا لا ينفي محاولات صياغة جديدة لحلم فلسطينيّ قد ضاع فعلاً في أرض الواقع. أحيانًا نجد أنّ الطرح الفنّيّ لا ينمّ عن عمق ينبع فعلاً من لبّ الوجود الفلسطينيّ وصيرورته

التاريخيّة، فيبقى العمل مجرَّدًا من استقلاليّة الإبداع الفلسطينيّ ها هنا، ويبقى العمل الإبداعيّ محصورًا في نطاق ردود الفعل، تمامًا كما التاريخ الفلسطينيّ السياسيّ الذي يُستَكْتَب منذ النكبة حتّى يومنا هذا! إنّ ما يستفزّ المشاهد هو محاولة خلق فنون إبداعيّة فلسطينيّة تتحاور مع الآخر وتتقلّص وتنكمش لتكون مجرّد ردود فعل لما يجري لدى ذلك الآخر... والآخر هو المحتلّ... هو المستعمِر... وهو نفسه الفنّان.... وهو صانع للقرار... وهو المدرِّس.... وهو الباحث في تاريخ الفنّ الفلسطينيّ... وهو السارد للرواية التاريخيّة الفلسطينيّة "الصحيحة"!

ويبقى السؤال مطروحًا أمام كلّ مبدع ومبدعة في فلسطين: ما هو الدور الذي يمكن أن يقوم به كلّ فنان في تلك المعادلة الصعبة، والتي تبدو للوهلة الأولى خاسرة؟ هل هي فعلاً معادلة خاسرة بالضرورة، سيخسر فيها الفنّان الفلسطينيّ بكونه يختار التواطؤ مع المؤسّسة الإسرائيليّة ليربح مكانته كفنّان في هذا المكان الذي يُدعى الوطن؟

* **د. حسني الخطيب شحادة**، محاضر وباحث في مواضيع الحضارة والفنون الإسلاميّة والأدب العربيّ وتاريخ الفنّ في جامعة بن غوريون وأكاديميّة الفنون بتسالئيل وكلّيّة ليفينسكي للتربية.